قصة قصيرة

العربة أمام الحصان!

في صباح أحد أيام فبراير القارسة، جلس الراوي ليتحدث عن جزء من الحياة غير مكتوب، قال: في مثل هذا اليوم الشاهد على الأسرار، امتدت قطع الخشب البنية الغليظة، في كبد المدفأة، مستسلمة، ساكنة كشيء مُصرّ على الاشتعال، أو كرحم خصب بولادات شتى، قال: في تلك الآونة الزاخرة بالقرب من الأحبة، كانت استدارة القطع الكالحة تتآكل بفعل الاحتراق، وكانت ألسنة اللهب الحائرة منهمكة في انبجاسها الرائع، من جدارات الحطب المتشققة، وبين القطعة والأخرى صنعت تلك الألسنة فضاءً ورديَّ اللون، ينبئ عن كونه الخاص، كون يرفض الإفصاح عن دلالاته المتعددة، وكان الجمر المحمر، الملتهب، أثناء ذلك كله ـ يتراءى عميقاً، بعيداً ـ وبالقربه ـ كصخور متألقة ولكنها تمور.. أما أرض المدفأة فكانت تنبئ عن فناء الأشياء: الرماد ولون السواد، وفحم محترق يلفظ أنفاسه المتقطعة دخاناً يتماهى كوناً لا لون له، اللهم إلا رائحة تتخلق في الوعي ذكريات غامضة، ومعاني عزيزة، غابرة، كل ذلك الفضاء الزاخر بطعم البدايات كل تلك التحولات الباهرة كانت من أجل ميلاد دفء للأجساد التي آدها السم أو البرد، فلست أدري..

ماهو الدفء إذن؟ وما الذي يجعل الحياة في حاجة إليه؟

رحمة منها بقلبي المتشقق بلظى الشك، رمقتني بعينيها الخضراوين، وقالت: ـ من الدفء تنبعث كل مشاعر الدنيا، وكل عروق الدم حية نابضة، فهو السعادة ياولدي فلا تضيعه وما أكبر خسرانك إن ظفرت بهذا الدفء ثم ضيعته.. في ذلك اليوم الظالم ببرودته الناضحة بالطغيان، وأنا أسبح ببصري في فضاء المدفأة، فكرت في موعظتها فتبدت ساعتها باردة كنفسي، حككت مؤخرة رأسي بسخرية وكلمت وحدتي:

ـ هذه أمي تهذي بما لا تعرف..

سخرت من الموعظة وهذا ـ والحق يُقال ـ هو العقوق بعينيه، فليكن عقوقاً أو كفراناً فما عاد يهم..

ـ إياك من بلد النصارى ياولدي..

ـ مالها بلد النصارى؟..

تساءلت باستنكار واستهانة.

ـ استرد رخصة القيادة وابق بجانبي..

وضحكت من توسلها مستلقياً على الأريكة، نظرت إليها بطرف عيني، وتساءلت كأني عارف من العارفين:

ـ هل تعرفين شيئاً عن الفرنك البلچيكي يا أمي؟

ونظرت إليَّ باستسلام، وفهمت من حركة حاجبيها الدقيقين أنها يائسة، وفضلاً عن ذلك غاضبة بصدق وبعد لحظات من الصمت انهار صوتها الحنون طافحاً بالوعيد:

ـ إذا سافرت.. فلتحمل غضبي إلى يوم القيامة..

ورحلت هي إلى العالم الآخر وتركتني وحيداً بجانب المدفأة، ارتميت على قبرها الحبيب أبكيها بحرقة العصاة، وا أسفاه يا أمي.. لا أحب اليوم أحدا غير ذكراك الحنون. وكنت لا أكره أحدا ومازلت، مثلما أكره الناصحين. كانت الأغنية مملة، وعلى أية حال لم تكن لتنسجم مع قلبي الجريح، أبديت ضجري بحركة ثقيلة من يدي، كانت الأغنية تتغنى بالمجلس النيابي وضحك ماء الزهر عالياً وهو ينزع شريط الكهرباء عن المذياع.

ـ إنه ليس المسؤول عنك على أية حال.

وعقب أبوالعشرين وهو يضع كأس الشاي.

ـ الأجدى أن تصب غضبك على وزير النقل.. وقبل أن ينصب عليه حنقي، رفع كأسه عالياً في السماء وهو يخطب:

ـ أو أقول لك؟.. في صحة عزيزتك الرأسمالية..

تبودلت القهقهات من حولي، وحتى أحمد العابد علّق من جانبه:

ـ فلتسافر إلى الاتحاد السوفياتي.

ـ لقد انتهى الاتحاد السوفياتي..

بقلم: سلام أحمد إدريسو

طأطأت رأسي المثقل بالألم، ثم خرجت عليهم جميعاً كالبركان.

ـ اللعنة عليكم جميعاً.. اخرسوا خاسئين..

ولم تكن ثورتي لتثنيهم عن غيهم ـ هكذا قدرت ـ وعلى ذلك أجابني ماء الزهر:

ـ من الخير أن تدفع رياح غضبك في اتجاه السوق الأوروبية..

ـ أنت والسوفيات ضحيتان للسوق الأوروبية..

وهكذا التفت إليه مصمماً على التنفيذ:

ـ دعني من حوارك الأيديولوچي.. أما زلت على الاتفاق؟

ـ وهل تستطيع معي صبرا؟

ـ عليك اللعنة، أنت تعرفني جيداً..

وحذرني بطرف سبابته:

ـ الأسبان قوم يجيزون تعذيب الثيران في المسارح..

ـ ولو، أنا مصمم على النزول للميدان

ـ ولو اعتبروك ثوراً؟..

ونهرته بقبضة يدي زاعقاً:

ـ لاتغالط نفسك.. قِرَدةٌ نحن ولكنك جاهل كالباقي..

وقلت ذلك لأمي وأنا أرتمي على قبرها أبكيها وأودعها...

أحمد العابد، وماء الزهر وحتى أبوالعشرين، كل أولئك بقايا عهد مجيد هو أيام الجامعة. المنحة لم تكن كافية في يوم من الأيام، لكننا كنا نملك لقب الطالب على أية حال. وكنا نعيش لليوم، أما الغد فقد وضعناه في يد كافة الوزارات، كان الجميع بما فيهم أنا، نتابع الدراسة في كلية الحقوق، ومن المفارقة أن الأعماق كانت مثقلة بإحساس كئيب يشعرنا أننا أشياء بلا حقوق، لم نؤمن ذات يوم بالقانون ولكن ماذا نفعل؟ قدرنا كان أن نختار فوهة التناقض. التناقض علاقة بلا مسافة ولا أطراف، على جبين جيلنا نقشت، وبين يديه أخصبت، وفي قلب أحلامه ولدت، وتناسلت في كل الاتجاهات. هذا الجيل هو أحمد العابد وأبوالعشرين وماء الزهور.. وأنا..

وها نحن أولاء نضحك كالحمقى، وفي أيدينا شواهد الإجازة، مطرزة بالأخضر، نتساءل، بجدية غير منتظرة عن معنى القانون، ولذلك صاح أبوالعشرين كمن يتذكر شيئاً ضاع:

آه ـ تُرى ما هو القانون؟

ـ آه صحيح، تُرى ما هو القانون؟..

كذا عقب عليه ماء الزهر بلهجة الباحث عن الحقيقة..

لكن أحمد العابد الفيلسوف أخذ بطرف ذقنه الغليظ وهو يتلو علينا رأيه:

ـ إذا زلزلت الإذاعات زلزالها، فذلك هو القانون، هاكم رأيي..

وضحكنا كالأغبياء أو كبقايا ذكاء في تاريخ البشر، وفي أعماقي نقمتُ على أحمد العابد لأنه لم يوافق رأيي ورأيت في سري أن فلسفته كاذبة كوجه الصحافة، لذلك صرخت في وجه الرفاق جميعاً وليس أحب لديَّ من تغيير الأحاديث:

ـ ليس في بلدتنا «جُبالة» سوى مزارع الكيف، وليس لنا سوى الإجازة فما العمل؟

فرنا إليَّ أبوالعشرين وقد قهقه الباقي، ثم قال بهدوء ذي مغزى:

ـ بين مزارع الكيف والإجازة برزخ فاصل.

ـ وخاصة إجازة الحقوق..

وأما أنا فقد تجاهلت سخريته الجارحة، وقلت كأني أجيب عن سؤال سابق:

ـ الحقيقة ضائعة، في حين تجثم الصحافة على رقابنا كعقاب غامض والويل لها مني..

وارتميت مقهوراً على الأريكة، بينما تحول الكل أنصاراً للصمت، وخلال ذلك كله كانت أم كلثوم تردد لغير ما مناسبة: أغار من نسمة الجنوب، ولسبب ما كان المطر

يقيم إمارته الخاصة خارج البيت، وهاهي ذي وطاة النار تأكل نفسي رغم برودة الفضاء، وهكذا قمت وسط الجميع مستجيراً بالشعر، فصاح ماء الزهر مستجيراً بي:

- أنشدنا ياطرفة بن العبد..

ولكنني كنت قد انهمرت - كالمطر - بشآبيب القول..

ياوطني الحسير..

هلم نغتسل الغداة من الدنس الأخير.

هلم يا ألمي الغزير..

.....

.....

قال الراوي وهو يعظني: انتبه من فضلك ياسيدي فما هو آت أشد إيلاماً للإنسان والأشياء..

وسط غابة القسطل الظليلة جرينا، كطيور مهاجرة فرحانة بمروج دافئة جرينا، أنا وأبوالعشرين، وبعد أن عبرنا جمارك سبتة الحزينة، جرينا، تخلصنا من شيء كالزيف فجرينا، وكم انبهرت وأنا أقف على مشارف ضيعة «المسيو بيدرو» الإسباني، والتفت إليّ أبوالعشرين، وأشار إليّ بالجلوس على بساط نضيد من نبات الجرجير، ذكرني اخضراره الفاتح بنبات الطابا الذي كان قد غطى أخيراً هضاب جُبالة كانفجار غير متوقع، وعدت إلى رفيقي الذي أخذ عدة رشفات من غليونه الدقيق وناولني الغليون اللذيذ ثم أومأ إلى المنزل الكبير الذي استراح بعيداً وسط ثلة من أشجار القسطل الفارعة..

- اسمع ، إن المسيو بيدرو عنيد.. ولكنه ينقذ رقبتك من البطالة لا محالة.. كانت رحلة البحر من شواطئ سبتة الحزينة إلى إسبانيا، كتاباً قرأنا فيه كل حكاية أبي العشرين مع الخدمة في ضيعه «المسيو بيدرو».. في البدء كانت عملاً في مزارع البطاطس والعنب، وتطورت إلى تهريب كميات من الحشيش هدية «للمسيو».. وفي آخر المطاف أصبح أبوالشعرين سائقاً في شاحنة السيد الناقلة للفوسفات من أرض الوطن إلى بلاد الإسبان.. في حين كان يستغل أيام العطل لبيع محصول الطابا.

وهاهي ذي شواطئ إسبانيا تطل علينا من وراء مياه المتوسط كعرّاف يستشرف الغد، بيد أن صاحبي نشر أمامي صفحة أخيرة من الكتاب..

- ولكن الأهم عند «المسيو بيدرو» ليس هو استيراد الفوسفات.

شجعته على الكلام بصمتي فاستطرد:

- الأهم من ذلك، تصدير نفايات الأدوية والصناعات الكيماوية إلى شواطئ سبتة.. لذت بالصمت، ولكن عروقي كانت ترتعد بدمائها. يااللضبع البائس، وخُيل إليّ أنني أبصر الدنيا بشكل شائه كريه، وكان الأمر واضحاً بالنسبة لمكروب مثلي، قلت في نفسي: لئن فتحت على حياتي هذه الفوهة البائسة فماذا يبقى للشيطان فعله؟ وجمعت من ذاكرتي ما تبقى من حوار، حيث ختم «المسيو بيدرو» بصوت أجش:

- لا صنعة ولا خبرة فماذا يريد صديقك المغربي؟

- «سنيور»، إن صديقي يمكن الاعتماد عليه في أي شيء، وهو فضلاً عن ذلك يملك رخصة للقيادة محجوزة في قسم (كسطييخو)، ويملك إجازة في الحقوق..

وضحك «المسيو بيدرو» حتى انتفخت أوداجه، وعقب ساخراً:

- إجازة صديقك كأيام الأندلس العربية لاتعني اليوم شيئاً.

كان الطريق السيّار يحتفل بصمته وهو كظيم، وها هو ذا الضباب بأسرابه عسكر مرصود. كنا ننفذ رحلتنا الرابعة والنفس فرحانة والقلب مكدود، وكانت أبعاضي تحارب أبعاضي وأمان الروح مفقود، تُرى ما شأن المبادئ بنا؟ هي برغم الجحود تتعقبنا، فليت شعري هل هي قدرنا أم هي القيود؟ وتذكرت الرحلة السابقة: من

العربة أمام الحصان!

أحشاء السفينة إلى صدر سبتة الحزينة، سبتة التي يطوقها البحر المتوسط كشبه جزيرة أو شبه سوار، الظلام دليلنا، وأكياس النفايات الوسخة حقيقتنا ووجهنا، نفرغها على أرض الميناء الشاهدة على أخطاء الليل والنهار، ثم نغادرها كالقراصنة..

النفايات: بقايا الرأسمال ودخان التكنولوچيا، ياعزيزي كل من عليها عاص.

ـ ياعزيزي أنا وأنت نفايات. أليس هذا الواقع أكبر الشهداء؟..

ـ ولكنها نفايات سامة..

ـ كلنا نفايات ولكنك ياعزيزي منافق..

ـ هذا استنتاج إفريقي.

ـ ستلعننا الأجيال..

ـ إذا عمَّت هانت..

ـ أوقف الشاحنة.

صحت به بلهوجة قاسية.

ـ أوقف فوراً، مللت المسير، كأنني أحمل الأكياس الملعونة على كتفي.. وتوقفت الشاحنة بعنف على هامش الطريق السيار، وصك سمعنا زعيق العجلات الصلبة وهي تحتك بشراسة مع الأرض السوداء، ثم ران بيننا صمت قاتل جاف كأننا نختنق في قاع مستنقع متعفن الأحشاء، نظر إليَّ بغضب مرعوب ثم فتح باب الشاحنة بحركة متشنجة، وقفز إلى الأرض، وجرى كالمجنون وهو يصيح بي: أنا ذاهب، لست صديقي.. لست...

ورددت صوته المرتجف المذعور، أشجار القسطل والعرمار الكبيرة.. كنت أنظر إلى شبحه الباهت وهو يتوارى رويداً في أطباق الضباب كشيء لايعنيني.. ويلاه! ما في القلب أكثر هولاً.. ما في القلب أشد هولاً من الحقيقة، والتفت حولي وشعور غامض يلتف حول وجودي الكئيب كمشنقة لا ترحم، كل الأشياء كانت صامتة لكنها كانت ترمقني بعتاب قاس، الأعشاب والشجر والسحاب وأسراب الضباب وندف الثلج المتساقطة كمخلوقات آتية من كوكب آخر، واستقر في خيالي أن هذه المخلوقات المتناقضة العجيبة تتجه نحوي لتنفذ فيَّ عقاباً من الله...

كان الرعب قد احتل آخر خلية من جسدي، تسللت بصمت وحذر إلى مؤخرة الشاحنة الحبلى بالنفايات القاتلة، فتحت باب العربة الخلفي هارباً، ولاجئاً اختفيت بالداخل، وجهاً لوجه أمام أكياس النفايات القاتلة، وأخيراً انشطر مني شخص آخر بريء القسمات، لكنني ذعرت منه ذعراً شديداً وصحت به:

ـ من أنت؟..

ـ أنا هو أنت.. ألم تتعرف عليَّ؟

ـ كلا أنت لست أنا.. أنا مسخوط أمي والوطن، ابتعد عني..

وتكومت بذعر شديد وسط أكياس النفايات، كانت ثمة رائحة غريبة تتسلل إلى دروب الرئتين كالسرطان، كلنا نفايات ولكنك وغد ياعزيزي، تنفست بعمق فشعرت أن فوهة كئيبة تنشق ثم تبتلعني إلى الأبد..

ـ ما اسمك؟..

ـ وغد..

ـ كنت على وشك الهلاك..

ـ لا أستحق ذلك..

ـ أين رفيقك المغربي؟..

ـ أنت لاجواز لك، كيف عبرت؟

ـ آه.. كيف عبرت..

كانت أرض المدفأة تعلن عن خراب الأشياء، وأما أنا فقد عدت من أقاليم الذكرى لأجد شخصاً بلا معنى.. آه كيف عبرت؟ التفت حولي وأنا أزفر بحرقة ودموعي تسبقني.. أنا الجليد من قبل ومن بعد، وقمت من مكاني متكئاً على العكازتين الخشبيتين، وأنا أشعر أن أمي كانت جليسي الوحيد بجوار المدفأة..